الصحراء العربية أكثر من واحدة وكلها تبحث عن جنتها المفقودة

الروائية ميرال الطحاوي تكشف أسرار الصحراء وعلاقتها بالروايات

للصحـــراء أثرها الكبير في الثقافة العربية، فــلا تكاد تخلو واحدة من الدول العربية من منطقة صحراوية، وقد تركت الصحراء أثرا كبيرا على الأدباء والشـــعراء وكتّاب الرواية، حتـــى أن هناك مـــن الروائيين من اختص بالكتابة عنهـــا لما تزخر به من أساطير وحكايات وعوالم ملهمة ضاربة في عمـــق المخيال والجمال والحكمة.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

الصحراء معطى أنثربولوجي وتاريخي

تتنـاول الكاتبـة الروائيـة ميـرال الطحاوي فـي كتابها "الأنثى المقدسـة.. أسـاطير المـرأة فـي الصحـراء" رواية الصحـراء أو الروايـة التـي اتخذت من القبيلـة وأعرافها وأنسـاقها الاجتماعية عالما، عبـر مجموعة مـن الروايات أكدت أنها اختارتها ودرسـتها كونها قريبة من روحها وعوالمها وهواجسـها وأسـئلتها الخاصة، مثل روايـات عبدالرحمن منيف وإبراهيـم الكونـي ورجاء عالـم وأحمد أبودهمان وأحمد ولد عبدالقادر.

وتقـرأ الكاتبة الصحـراء باعتبارها وعاء ثقافيا خاصا وعالما شـديد الانحياز إلـى عزلتـه وتراثه وقيمـه وأعرافه التي تحكمها أعراف مقدسة مثل كل المجتمعات البدائية التي يشكل فيها العرف أو التابو قانونا للمقدسات، وهو مجتمع يتكئ على الطقس الأسـطوري في تفسيره للأحداث الكونية.

هيمنة المقدس

تقـول الطحـاوي إنـه لمـا كانـت الصحراوات العربيـة متنوعة عرقيا، فإن تشـكيلاتها الثقافيـة وبطونها وأصولها متعددة، فهي تنقسم من حيث الجغرافيا – على أقل تقدير – إلى منطقتين متمايزتين: الصحراء الكبرى الأفريقية، وهي تشـغل منطقة شـديدة الجفاف تضـم أجزاء من موريتانيـا والمغـرب والجزائـر وتونس وليبيا، وتسـكنها العديد من القبائل ذات الأصـول العربية، لكنهـا – عرقيا – أرض أهل اللثام، كما سـماها الرحالة، وموطن قبائل الطوارق والأمازيغ.

وتضيـف "أمـا الكتلـة الصحراوية الثانيـة فهي جزيـرة العرب واسـتثنينا في ذلك دول الخليج لأنها تمثل قطاعا مختلفا عن قلب الجزيرة؛ الذي هو نجد والحجاز واليمن أو المملكة العربية السعودية واليمن. حيث تعد من أكبر الصحارى وأكثرها قدرة على تشكيل الحالة النموذجية للصحراء".

وتشير الطحاوي إلـى أن الصحراء تفرض شـروطها المكانية في علاقاتها المقدسـة مع الزمن ومع المكان ومركزيته، ومـع الكائنـات الأرواحيـة كالجـن وما شابهها، ومع طقوس التضحية والقربان، وعلاقة الصحراء بالفكر الإنساني البدائي تنبنـي على تصـور ما للقدسـية، وبذلك يشكل المقدس في تشـكيلاته إطارا للعقل القبلي، والديانات السـماوية الكبرى كان لها اتصال وثيق بهذا العالم.

وتـرى أن القبيلة محكومـة حتى في نزوعها السياسي بصور المقدس، ويتجلى المقـدس في تلـك الحيـاة عبـر الثورات الدينيـة الكبـرى، ثم في صيغـة الحاكم الذي يكتسـب سلطته من سـلطة المقدس السـماوي نفسـه، إنه الراعي في العرف القبلي، وهـم الرعية المحتاجة إلى رعاية، وقد اتخذت الرواية في هذا الإطار سـبيلا إلى تفسـير السياسـي بتفكيك منظومته القبليـة كما شـاهدنا فـي روايـة "مدن الملح" لعبدالرحمن منيف أو تحليل معنى الشـرف، وقد يشـبه النسـل المقدس، كما تقدم "الرهينة" لزيد مطيع دماح الشـعور القبلـي لمفهوم الأشـراف الذين ينحدرون من قريش أو من الهاشـميين، ويصبحون سـلطة سياسـية قبلية وأحد التابوهات المحرمـة سياسـيا مهمـا يكـن الوضـع السياسي منحدرا.

وتلفـت الطحـاوي إلـى أن الروايـة الصحراويـة – مـن الاسـتقراء العـام – تتشـكل فـي رحم المقـدس بـكل تجلياته المكانيـة والزمانيـة ومفهوماتـه الأخرى للنسـب والعـرف والطقـس والقربـان والمدنـس، مضيفـة "لقـد أردنا مـن ربط الدراسـة بالمقـدس أن نثبـت معاملا من المعامـلات النصيـة أو العلامـات كـي تتكشـف العلائق بين النـص وعالمه، فإن كان النـص يقـارب المقـدس والتاريخي والرمـزي والإحالـي ويتخـذ علامـات بنائيـة معينـة تصلـح للدراسـة بصور المقـدس كما فعل بروب فـي 'مورفولوجيا الحكاية الخرافية' أو شـتراوس في 'بني القرابـة'، فإن النصوص التي نطلق عليها صحراوية بالمعنى الثقافي، بدائية بالمعنى الأنثربولوجي، رعوية بالمعنى الاجتماعي، هـي نصـوص تتقاطـع مـع تجليـات المقدس والأسـطوري والتاريخي، وتأثير المـكان يتعدى إلـى بناء الذهنيـة القبلية والتصـورات المتصلـة بالكـون والحياة والتاريخ".

وتحـاول الطحـاوي فـي دراسـتها العثور على البنيـة العميقة للمكان وأثره في تشـكيل النص عبر تتبع عنصر واحد هو "المقدس"، وتقول إن "استقراء الأعمال – مناط الـدرس – أكد انشـغال النصوص بصور المقدس، المدن المقدسة، الإثم والقربان والأضحية البشرية، التصور الأسطوري للقوى الكونية، الزمان المقدس الذي تحاول الصحراء استعادته عبر الجنة المفقودة، الواحة الضائعة، المرأة وصورتها الجنسية وعلاقتها بالمقدس، بالغواية، بالخروج من الجنة، المقدس السياسي والتصور الرعوي للحاكم الراعي، وللبركة والأولياء والأشـراف حيث يمارس المقدس سطوته عبرهـم، وتتقبـل العقليـة البدويـة ذلك باعتبار السـلطان شـيخ القبيلة الشريف الولي يكتسـب سـلطته الدينيـة مما هو عرفـي أو غيبي، وبذلك تظـل المجتمعات القبلية – من الناحية السياسية – محمومة بمقدسات وغيبيات ومذهبيات كثيرة".

نصوص عن الصحراء

حول صحراء الجزيرة العربية روائيا توضح الطحـاوي أن الصحـراء كمعطى حقيقـي وأنثربولوجـي وتاريخي وقبلي أكدته ثلاثة كتـب قدمت العالم الاجتماعي القبلـي الخـاص بالجزيـرة بـكل متونه التاريخيـة، واشـتغلت رجـاء عالم على المجتمع المكي والبيوت الكبيرة مجسـدة الحياة الاجتماعية في حاضرة مؤطرة بما هو قبلي، ومزيج من قيم صحراوية وواقع متداخل في أجناس عدة وافدة، واشتغلت على ما قبـل المد العثماني، ويمكن التكهن بذلك مـن خلال النصوص التـي اختارت فتـرة تاريخيـة مهمـة أقرب إلـى العهد العثماني ونزاع أمراء مكة حول السـلطة وما اتسـمت بـه الحيـاة الاجتماعية من انفتاح وتنوع.

وبينما اختار أحمد أبودهمان الحياة الاجتماعيـة لحاضـرة أشـبه بواحـة أو قريـة ليقدم واقعـا اجتماعيـا صحراويا يواجه التمدن وحتميـة التغيير، ثم رصد عبدالرحمن منيف تحول هذا المجتمع إلى عهد سيحدث في مجتمعها تأثيرا لا يقارن من حيث أبعاده إلا بتأثير الإسلام، غير أن القوى المحركة لهذه التحولات كانت خارج الجزيرة العربيـة، إلا أن أصلها يعود إلى تحول اقتصاد القرن العشـرين إلى وقود جديد هو النفط الـذي بدأ البحث عنه في كل بلدان العالم.

> الرواية الصحراوية تتشكل في رحم المقدّس بكل تجلياته المكانية والزمانية ومفهوماته الأخرى للنسب والعرف والطقس والقربان

وتضيف "انشـغلت هذه الكتابة أيضا بالإضافـة إلـى الجـذر الصحـراوي بمد المدينة والتغيرات التـي أصابت المجتمع ببنائه القيمي، تماسـت مـع المقدس بكل أشكاله: المقدس الاجتماعي، المرأة، والمدن المقدسة، والمقدس السياسي بعد أن صارت الأسـرة المالكة تتخذ مـع المذهب الوهابي وتحتمي بالنـص المقدس، وصـار تاريخ هذه الأسـرة جزءا من مقدسـات الجزيرة التي حاول الأدب التصالح معها (...) ظهر المقدس التاريخي بأشـكال متعـددة، إننا أمام كتلـة ثقافية وتاريخيـة أخرى، أمام ماض وثنيّ وحاضر مقدس، ووضع قبلي معقد".

وتشـتغل الطحاوي على رجـاء عالم التي قدمـت عن الحياة في مكـة أكثر من روايـة، انتقت منهـا "حبي" ثم "سـيدي وحدانه" إذ وصفت حياة المكيات، وتطرقت إلى المقدس فـي صورته الأولى في وصف الحج والأراضي المقدسة، كما تشتغل على روايـة "الحـزام" لأحمد أبودهمـان وقد حكـى عن عادات وتقاليـد قرية في جنوب الحجـاز، ثم رواية "الرهينـة" لزيد مطيع دماج التي هي بشـكل من الأشـكال رواية القبيلـة ونزاعاتها في الحكـم الذي تولاه الأشراف أو الأئمة في اليمن.

أمـا في ما يتعلق بالصحـراء الكبرى روائيـا، فتقـول الطحاوي "مـن الناحية البيئيـة تعتبـر الصحـراء الكبـرى من أكبر المناطـق الصحراويـة الحالية على الأرض، ومـن الناحيـة الجيولوجية فإن الاكتشـافات الصخرية تدل على غنى هذه المنطقـة وخصوصيـة عوالمهـا: جبالهـا غنيـة بالنقوش العظيمة التـي هي أغنى مناطـق الأرض بالنقـش الصخري، وهذه الاكتشـافات تؤكـد علاقـة هـذه المنطقة مع الحضـارة المصرية القديمـة، والقارة الأفريقية الزنجية، وقد تعرضت إلى زحف أهل الجنوب الأفريقـي وثقافتهم الزنجية عليهـا، كما أنهـا تعرضت إلـى موجات فينيقية قادمة من البحر، وتعتبر العصور الرومانية من الأشـكال الثقافيـة الوافدة أيضا".

وتضيف "يسـتكمل تاريـخ الصحراء الكبرى بالفتح الإسلامي وقيام عدة ممالك إسـلامية في قلـب الصحـراء مثل مملكة بورنو وكانم وغيرهما، وسـتدخل الطرق الصوفية والمرابطون والموحدون وأشكال المذاهب والمشـايخ، ويمر عليها الراحلون العرب والأوروبيون، وتشقها الطرق التي يبحث أبناؤهـا عن مناجم الملـح ودفائن الذهـب، إنهـا عالـم صحـراوي بامتياز ورحـم روائية مليئـة بالتفاصيـل، ولقد كان إبراهيم الكوني الـوارث الوحيد لكل هذا التراث، لكل هذا التراث الغني لقبائل الصحراء الكبـرى، خاصة الطوارق الذين اشتغل عليهم".

وتسـتقرئ الطحاوي عددا من الأعمال التي أنتجتها الصحراء الكبرى مثل رواية مالك حداد "سأهبك غزالة" وروايات أحمد ولد عبدالقادر "القبر المجهول أو الأصول" و"الأسـماء المتغيـرة" ورواية "مدينـة الرياح" لموسـي ولد ابنـو، لتقف بعد ذلك عند إبراهيم الكونـي وتجربته باعتبارها محـورا ممثـلا لهـذا العالـم، ومـن ثـم اختياره، ليصير ممثـلا ناضجا ومكتملا لهـذه الصحـراء بـكل موروثهـا العريق واختلافها الجذري في مكوناتها الثقافية والعرقية عن صحراء الجزيرة العربية.

ولا يقع اختيـار الكوني لمجرد الثراء الكمي الذي حظيت بـه تجربته الروائية؛ بـل لأنها اشـتغلت علـى هـذا العالم من بنيتـه الاجتماعية الفاعلة، واسـتطاعت أن تجـد معادلا مكتملا لهـذه التجربة من حيـث البعد الفلسـفي والوجودي لمفهوم الصحـراء، حيـث يكون مقدسـها مفعما بالكثيـر من التلونـات التاريخيـة، فهي تشـتغل على صيـرورة هـذه القبائل منذ اكتشـاف النقـوش الصخريـة حتى المد الإسـلامي وما أحدثه في صـورة المقدس الوثني من تغيرات، وترصد تحول المقدس مـن الوثنـي إلـى السـماوي فـي تكامل وإحاطة بالغة.

وكون المقدس وتجلياته يشكلان محور الدراسة تتسـاءل ما المقدس ولماذا يرتبط بالروايـة الصحراويـة؟ وتقـول "يتعدد المقـدس ومفاهيمـه التي تنحـدر من علم الأديـان، ويظل متصلا بالآلهة والغيبيات، لكن يصبح في علم الاجتماع وعلوم النفس مرادفا لبنية نفسية واجتماعية لمجتمعات محـددة أو جماعات لها خصائص معينة، فمن المقدس عند المسلمين إلى المقدس لدى الأفارقـة والوثنيين.. إلـخ. فالمقدس ليس الديـن فقط وإن كانت جذوره دينية، وإنما المقدس يكمـن حتى في عاداتنـا اليومية واعتقاداتنـا، في تفاؤلنا وتشـاؤمنا، في النظـم التي نحكم بها، في العلاقات ضمن العمل، وفي العائلة، وحتى في المؤسسـة الزوجيـة وفـي البديهيـات والمسـلمات والحكايـات. المقـدس وتجليـه وانبثاقه من النصـوص التي ارتبطـت بالصحراء في الروايـة العربية، يعني في دراسـتنا التصـور البدائـي والصحـراوي للكون والحياة في اسـتظهار لأشـكال القداسة، إن القدسـي وصـوره وتخيلاتـه وأنماط حضـوره هو الـذي يكشـف عـن البنية الاجتماعية والنفسـية الكلية لهذا العالم ويقودنا إلى قواه الحقيقية".

«حدائق شائكة» قصة مهندس حدائق يخوض صراعا في مخيم للاجئين

عمان – أقيمـت أخيرا ضمن فعاليات معرض عمّـان الدولي للكتاب ندوة نقدية حـول رواية "حدائـق شـائكة" للروائي صبحي فحماوي الصادرة حديثا عن دار الأهلية للنشر والتوزيع، بمشاركة عدد من النقاد.

وتصـور الرواية حيـاة متفاقمة في مدينـة إرم ذات العماد، الواقعة في مكان بعيـد بـين الصحـارى العربيـة، حيث يتجمع فيها مهاجـرون عرب كثيرون من فلسطين والوطن العربي، وتزدهر بسرعة في وسـطها جماليات حضارة مدهشـة، وتتناثـر حولها مخيمـات لاجئين كثيرة بائسـة مُعدمة، ويمر من وسـطها طريق الحريـر، بما فيه من وسـائل نقل حديثة جـدا ومختلفـة كالقطارات بسـرعة 700 كيلومتـر فـي السـاعة ومسـارب كثيرة للسيارات، وأنابيب نفط عملاقة لشركات ودول مختلفـة، وهذا الطريـق يبدأ من الصـين ويمر عبر منخفـض البحر الميت الأردنـي إلـى مدينة غـزة الفلسـطينية وميناؤها الدولي.

وشـخص هذه الرواية هـو مهندس حدائـق اسـمه جبريل عرسـال، وتعتبر تصرفاته ونشاطاته الحدائقية، بما فيها من إيجابيات وسلبيات وأفكار مجتمعية وفلسـفية وصراعـات طبقيـة وأحـداث سياسية، هي محور السرد الروائي.

وقـال الأديب حسـن عبـادي القادم من فلسـطين إن "الرواية تتناول ظواهر اجتماعية واقتصادية يعاني منها العالم العربي، وصـارت علامة فارقة لشـرقنا، وتتناول وضع المرأة العربية، كما تصور بمنظار مهندس الحدائق جبريل عرسـال الحياة في مدينة إرم ذات العماد المحاطة بمخيمـات اللجـوء مـن فلسـطين ومن غيرها".

وأضـاف أن فحمـاوي يسـتخدم السخرية السوداء لتصوير الواقع المرير وتعريتـه، كما جاءت لغة الرواية سـهلة، جميلة وسلسـة، وتقدم جرعـة كبيرة من أدب الرحلات، إذ يصور الكاتب ما صادف الشـخصية الرئيسـة من أمور وأحداث خلال سفره المتعدد شرقا وغربا.

وتوقفـت الناقـدة دلال عنبتاوي عند "العنونـة المكانية" في الروايـة، وتأملت بنية العنوان لغويـا، وقالت "جاء عنوان الرواية عنوانا مكانيا بامتياز، فالحديقة مـكان، وقد توالت العناويـن المكانية في مـتن الرواية بعد ذلـك، حيث وصلت إلى عشرة عناوين توزعت على 160 صفحة من القطع الكبير وجاءت العناوين موزعة بين الأمكنة والشخصيات".

ورأت عنبتـاوي أن "الحضور المكثف للمـكان فـي العنونـة والـدلالات كان يؤسـس لعلاقة متجذرة وقوية ومتجددة فـي الروايـة، ويعـزز عمقهـا ودلالاتها الوجودية والإنسانية والعاطفية"، وقالت "إن قراءة هذه العنونـة المكانية ودلالاتها في بنية السـرد الروائـي لا يمكن عزلها دلاليـا عن زمنها الخاص، سـواء ما كان يحيل على الماضي أو الحاضر المستمر أو ما يحيل على ما هو واقعي أو غير واقعي أو أسطوري طالما أنه يشكل امتدادا لزمن التجربـة فـي تمثلاتها وأشـكال تعينها المختلفة".

من جانبـه قال الشـاعر نضال برقان "لم يترك الروائي فـي روايته فرصة يمكن من خلالها تمرير رأي أو وجهة نظر بشأن سياسي أو اقتصادي عالمي إلا واستثمرها خير اسـتثمار"، مضيفا أن اسـم جبريل عرسال دلالة تعكس انحياز المؤلف للتراث الكنعاني، وفي هذا موقف فكري وسياسي ورؤية تتبنـى الكنعانية بوصفها خلاصا للخروج من الأزمـات الجمة التي تعصف بالمنطقة منذ مئات السنين.

وأشـار إلى أن الرواية تقـدم مقاربة لحال المرأة، جوهـرا ومظهرا، في بلادنا وفـي بـلاد الغـرب، كمـا تقـدم مقاربة لأخـلاق النـاس عمومـا هنـا وهنـاك، وفيهـا رؤى فكريـة وفلسـفية وجودية منتشـرة مـن أرجائها، وقـد اتخذت لها مكانا متخيلا ذا مرجعيـات واقعية، أما زمنها فراهن ومعيش، وقد جسدت ثقافة كاتبها ومعرفته الإنسـانية والمهنية خير تمثيل.

وقبـل نهاية الندوة تحـدث الروائي فحمـاوي حـول الروايـة وهـي الثانية عشـرة له، عن أهم الأسئلة التي انشغلت بها، إضافة إلى لغتها وعلاقتها باللهجة المحكيـة، وطبيعـة مكانهـا وعلاقتـه بالخيال.

وعلى غـرار رواياته السـابقة أبحر فحماوي في المصائر الإنسـانية وقضايا بلاده والهـمّ العربي العـام عبر رواياته وقصصه القصيرة، منحازا دائما إلى قاع البلد، ومنتصرا للحب فـي زمن العولمة، لاسـيما لو تعثّر الراوي في "قصة عشق كنعانيـة"، كما تقـول عناويـن رواياته، إلى حـد أن النقاد يصفونـه بأنه الأديب الأردني الواقف على باب الهوى.

> الكاتب يستخدم السخرية السوداء لتصوير الواقع المرير وتعريته خاصة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها العالم العربي

وينتمـي الكاتـب الأردنـي من أصل فلسـطيني إلـى الكتابـة الجديـدة، إذ يسـعى لمواكبـة الظواهـر المسـتجدة المؤثـرة فـي صياغة السـرد واكتشـاف العوالـم التخييليـة والبنائية، وتتقاطع تجربته مع التطور التكنولوجي والنشـر الإلكترونـي، إلـى درجة أنـه يعتبر ذاته مدينا بوجـوده لتلك التقنيـات، وأنه لو لا عالـم الاتصالات لخُـزّن الأدب الحديث برمته في مستودعات يأكلها العفن.

ويسـعى فحماوي من خـلال أعماله القصصيـة والروائية للتطوير الصياغي والبنائـي والأخـذ بأسـاليب الكتابـة الجديدة وأيضا آليات النشر الإلكترونية، واضعا في اعتباره التحولات التي تجري في العالـم من ثـورة معلوماتية وهوس تكنولوجي.

ويعتـرف فحماوي بـأن تقييم الذات ربما يكـون أكثر نزاهة ومصداقية عندما يتولى الآخرون هـذه المهمة، ويقول "هل ثمة خصوصية لكتابتـي الروائية؟ ربما يرى النقاد ذلك، لكنني من جهتي لا أعرف كيف تتأتى هذه الخصوصية".

صبحي فحماوي يواصل انتصاره للمهمشين